

# الإمامة ونظرية أهل السنة عند الإمام المجدد السرهندي

تعريب وتقديم :

دكتور/ محمود أحمد غازي

كان الإمام المجدد أحمد بن عبد الأحد السرهندي يهتم بنشر العقيدة الصحيحة لأهل السنة والجماعة، خاصة في الأمور التي ما زالت موضع خلاف ونقاش بين أهل السنة والشيعة - وكان يعالج موضوعات العقيدة في رسائله المعروفة "بمكاتيب الإمام الرباني" :

ونحن نورد فيما يلي ترجمة المکتوب السادس والثلاثين من المجلد الثاني الذي كتبه الإمام إلى الخواجه محمد التقي - ويبحث المکتوب عن نظرية الإمامة وحقيقة مذهب أهل السنة والجماعة - ويفند آراء غيرهم، ويحاول أن يثبت بالأدلة أن موقف أهل السنة هو الموقف الوسط المعتدل، وأن أهل السنة متوسطون بين الإفراط والتفريط، ويرد على آراء الشيعة والخوارج - الطائفتين اللتين يرى أنهما يمثلان الإفراط والتفريط في أمر الصحابة وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وإليك ترجمة المکتوب باللغة العربية :

فاعلم، بعد الحمد والصلوات وتبليغ الدعوات اللازمة، أن محبة الفقراء والارتباط بهم والألفة معهم والرغبة في الاستماع إلى كلمات هذه الطائفة العلية والشوق إلى أوضاع هذه الطبقة السنية وأطوارهم هي من أجل نعم الله سبحانه وتعالى، ومن أعظم عناياته تعالى؛ فقد قال المخبر الصادق - عليه وعلى آله الصلاة والسلام :

"المرء مع من أحب"؛ فمن أحب أهل الفقر كان معهم وتطفل على مائدتهم في حريم قريهم إلى ربهم .

إن ابننا البار السعيد الصالح الخواجه شرف الدين حسين قد أخبر بأن هذه الأوصاف الحميدة مجتمعة في جنابكم على الرغم من وجود علائق كثيرة، وتتمتعون بهذه المعاني المستحسنة المقبولة مع وجود مشاغل لا طائل فيها - فالحمد كل الحمد لله سبحانه وتعالى وله المنة على ذلك. فإن صلاحكم موجب لصلاح جم غفير - وفلاحكم مستلزم لفلاح جمع كثير .

وأشار الأخ المذكور إلى أنكم مطلعون على أمور هذا الفقير العاجز وترغبون في الاستماع إلى علومه ومعارفه، وأشار أيضا إلى أهمية كتابة بعض الكلمات إلى جنابكم، وقال لو أرسلت إليكم نبذة من هذه الكلمات لكان أفضل وأحسن. فرأيت أن أكتب هذه الكلمة إجابة لطلبه.

ولما كثر في هذه الأيام البحث في موضوع الإمامة ورأينا الناس يكثرون الكلام في هذا الباب بالظن والتخمين أردت أن أكتب في هذا الموضوع بعض الأسطر أبين عبرها حقيقة مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب المخالفين.

أيها الطالب للنجاة!

إن من علامات أهل السنة والجماعة تفضيل الشيخين ومحبة الحتتين. أعني أن اجتماع تفضيل الشيخين مع محبة الحتتين من خصائص أهل السنة والجماعة.

وتفضيل الشيخين ثابت بإجماع الصحابة والتابعين. كما نقله أكابر الأئمة، منهم الإمام الشافعي - رحمه الله. وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري: إن تفضيل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الأمة أمر قطعي. وقد ثبت عن علي كرم الله وجهه بالتواتر أنه كان يقول دائما في زمن خلافته وعهد مملكته أمام الجم الغفير من الناس أن أبا بكر وعمر أفضل هذه الأمة، كما ذكره الذهبي. وروى عنه الإمام البخاري أنه قال أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر، ثم عمر، ثم رجل آخر. فقال ابنه محمد بن الحنفية: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. وبالجملية فإن تفضيل الشيخين قد بلغ من كثرة الرواة الثقافات حد الضرورة والتواتر. فإنكاره إما من الجهل أو من التعصب. ولما لم يجد عبد الرزاق الذي هو من أكابر الشيعة مجالا للإنكار قال بتفضيل الشيخين من غير اختيار. وقال: حيث فضل علي الشيخين على نفسه أفضلهما أنا أيضا عليه لتفضيله لهما، ولولا أنه فضلهما على نفسه لما فضلتهما عليه. وقال عار علي أن ادعى محبة علي ثم أخالفه.

ولما كثر في زمان خلافة الحتتين ظهور الفتن والاختلال في أمور الناس، وحصلت من هذه الجهة كدورة في قلوب الناس. واستولت العداوة والبغضاء فيما بين المسلمين، عُدَّت محبة الحتتين أيضا بالضرورة من جملة شرائط كون الشخص من أهل السنة والجماعة، لثلا يسيء الجاهل الظن من هذه الحيشية بأصحاب خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام. ولثلا يضمم البغض والعداوة لنواب رسول الله القائمين مقامه عليه وعليهم الصلاة والسلام. فكانت محبة علي كرم الله وجهه شرطاً للتسنن. ومن ليست فيه هذه المحبة وفرط فيها صار خارجا عن أهل السنة، ويسمى "خارجيا". وكل من اختار جانب الإفراط في محبة علي ووقعت منه الزيادة على القدر اللائق

وأظهر الغلو في تلك المحبة، وأطال اللسان في أصحاب خير البشر، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وترك طريق الصحابة والتابعين والسلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين ورفضهم سمي "رافضياً".

فأهل السنة متوسطون بين الإفراط في محبة علي كرم الله وجهه وبين التفريط فيها - وهما الأمران اللذان اختارهما الروافض والخوارج. ولا شك أن الحق في الوسط - والإفراط والتفريط كلاهما مذمومان؛ كما روى الإمام أحمد بن حنبل عن علي أنه قال له رسول الله ﷺ: "فيك مثل من عيسى؛ عاداه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه منزلة ليست له" يعني قالوا عنه إنه ابن الله، ولذا قال علي: هلك في اثنان: المفرط في محبتي، حتى يثبت لي ما ليس في، والثاني من يعاديني ويفتري عليّ بعداوته وبغضه لي. فشبه حال الخوارج بحال اليهود، وحال الروافض بحال النصارى. وكلاهما وقعا من الحق الوسط في الطرفين.

وما أجهل من لا يعد أهل السنة والجماعة من محبي علي! ويزعم أن محبته مختصة بالرافضة، وليست محبة علي من الرفض في شيء، وإنما الرفض هو التبرؤ من الخلفاء الثلاثة. والتبرؤ من الأصحاب الكرام مذموم، وصاحبه عليه ملوم. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

لو كان رفضا حب آل محمد ❖ فليشهد الثقلان أني رافضي

يعني أن حب آل محمد ليس برفض، كما يزعمونه. فإن سموا هذا الحب رفضا فليس برفض مذموم. فإن ذم الرفض إنما جاء من جهة التبري عن الآخرين ورفضهم، لا من جهة محبتهم. فيكون الذين يحبون أهل بيت رسول الله - عليه وعليهم الصلوات والتسليمات - حبا حقيقيا هم أهل السنة والجماعة، وهم أتباع أهل البيت في الحقيقة. أما الشيعة الذين يدعون محبة أهل البيت ويعتبرون أنفسهم من شيعتهم، فإن لم يقتصروا في محبتهم على أهل البيت ولم يتبرؤا من الآخرين، وقاموا بتعظيم جميع أصحاب النبي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - وتكريمهم، ووقروهم حق تعظيمهم وتكريمهم وتوقيرهم، وحملوا مشاجراتهم على محامل حسنة، فهم في الحقيقة داخلون في أهل السنة والجماعة، وخارجون عن زمرة الخوارج والروافض. فإن عدم محبة أهل البيت علامة الخارجية ومن خصائص الخوارج، والتبرؤ من الأصحاب علامة الرفض. ومحبة أهل البيت مع تعظيم جميع الأصحاب الكرام وتوقيرهم هو "التسنن".

والخلاصة أن بناء الخارجية والرفض مؤسس على بغض أصحاب النبي - عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، وأن مبنى التسنن مؤسس على حب أصحابه الكرام - عليه وعليهم الصلاة والسلام - والعقل المنصف لا يفضل بغض الأصحاب الكرام على حبهم أصلا - بل يحب جميعهم بحب النبي

- عليه وعليهم الصلوات والتحيات - قال عليه الصلاة والسلام : من أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم .

ولنرجع إلى أصل الكلام - فنقول كيف يظن أن أهل السنة والجماعة لا يحبون أهل البيت ، والحال أن حب أهل البيت جزء من الإيمان عند أهل السنة والجماعة ، وسلامة الخاتمة مربوطة عندهم برسوخ تلك المحبة . وكان الوالد الماجد لهذا الفقير يرغب الناس في أكثر الأوقات إلى محبة أهل البيت ، وكان رحمه الله عالما بالعلم الظاهري والعلم الباطني . وكان يقول : إن لمحبتهم دخلا عظيما في سلامة الخاتمة . فلا بد أن تراعي هذه المحبة مراعاة كاملة .

وكان هذا الفقير حاضرا في مرض موت الوالد رحمه الله . فلما وصل أمره إلى نهاية عمره ، وبقي الشعور بهذا العالم قليلا ، ذكرته في ذلك الوقت بكلامه ، واستفسرته عن تلك المحبة . فقال وهو في تلك الحالة التي لم يكن به شعور كامل بذاته : إنني غريق في محبة أهل البيت . فأديت شكر الحق عز وجل في ذلك الحين .

فالحقيقة أن محبة أهل البيت رأس مال أهل السنة . وأما المخالفون فتغافلوا عن هذا المعنى ، وتجاهلوا محبة أهل البيت محبة وسطا ، فاختاروا لأنفسهم جانب الإفراط . وظنوا أن كل ما دون هذا الإفراط فهو تفريط ، وحكموا عليه بالخروج . وزعموا أنه مذهب الخوارج . ولم يعلموا أن بين الإفراط والتفريط حدا وسطا ، هو مركز الحق وموطن الصدق ، وهو الذي جعله الله نصيبا لأهل السنة والجماعة ، شكر الله سعيهم .

والعجب أن أهل السنة هم الذين قتلوا أهل الخروج واستأصلوا أعداء أهل البيت . ولم يكن من الرافضة في ذلك الوقت لا اسم ولا علامة ، وحتى لو كانوا موجودين فقد كانوا في حكم العدم . وكأنهم تصوروا أن محبي أهل البيت هم رافضون بزعمهم الفاسد ، فسموا أهل السنة روافض ، وأمرهم عجيب ، حيث يعدون أهل السنة أحيانا من الخوارج ، لعدم إفراطهم في المحبة ، ويزعمونهم أحيانا روافض لما يحسون فيهم من نفس المحبة . ولهذا تراهم يزعمون بسبب جهلهم أن كثيرا من الأولياء العظام الذين هم من أئمة أهل السنة والذين يذكرون أهل البيت بالحب والاحترام ويظهرون حب آل محمد - صلى الله عليه وسلم - يظنونهم "روافض" ، كما يظنون أن كثيرا من كبار علماء أهل السنة الذين ينهون عن الإفراط في تلك المحبة ويحرضون على تعظيم الخلفاء الثلاثة وتوقيرهم "خوارج" . فيا أسفى ألف أسف على جرأتهم غير المناسبة ، أعاذنا الله سبحانه من إفراط تلك المحبة والتفريط فيها . ومن علامات إفراطهم في المحبة أنهم اشترطوا في تحقق حبهم لسيدنا علي التبرؤ من الخلفاء الثلاثة وغيرهم .

ينبغي أن يكونوا منصفين في تحديد معنى المحبة التي يشترطون في حصولها التبرؤ من خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم الذين جاءوا من بعده، وسب أصحاب خير البشر، وطعنهم فيهم رضوان الله عليهم أجمعين، وما ذنب أهل السنة إلا جمعهم بين محبة أهل البيت وتوقير جميع أصحابه صلى الله عليه وسلم وتعظيمهم، بحيث لا يذكرون أحداً منهم بسوء، على الرغم من وجود المنازعات والمخالفات فيما بينهم، وينزهونهم عن الأهواء النفسانية والتعصبات البشرية، وما ذلك كله إلا بسبب تعظيم صحبة النبي وتكريم مصاحبيه، عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك فإن أهل السنة والجماعة يسمون المحق محققاً والمبطل مبطلاً، ولكن مع تنزيه بطلانه من الهوى والشهوات، وإحالة على الرأي والاجتهاد. وإنما يرضى الروافض عن أهل السنة والجماعة إذا هم تبرؤوا من سائر الأصحاب مثلهم، وإذا هم أساءوا الظن بهؤلاء الأكابر. كما أن رضا الخوارج عنهم مربوط بعداوة أهل البيت ومنوط ببغض آل محمد - عليه وعليهم الصلوات والبركات. "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب". وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أكابر أهل السنة والجماعة، شكر الله سعيهم ثلاث فرق في وقت منازعة بعضهم بعضاً :

١- فرقة عرفوا حقيقة جانب علي رضي الله عنه بالدليل والاجتهاد .

٢- وجماعة أخرى وجدوا أيضاً بالدليل والاجتهاد حقيقة الجانب الآخر .

٣- وطائفة ثالثة كانوا متوقفين ولم يرجحوا جانباً واحداً بالدليل .

فلزمت الطائفة الأولى نصره جانب علي بمقتضى اجتهادهم، ولزمت الطائفة الثانية نصره جانب مخالفه كما أدى بهم اجتهادهم. ولزمت الطائفة الثالثة التوقف. وكان ترجيح إحداها على الأخرى خطأ في حقهم. فعملت كل فرقة من هذه الفرق الثلاث بمقتضى اجتهادهم. وأدوا ما هو الواجب واللازم على ذمتهم. فأني يكون للملامة مجال فيهم؟ وكيف يكون الطعن مناسباً لهم؟ قال الإمام الشافعي كما نقل أيضاً عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما : "تلك دماء طهر الله منها أيدينا فلنظهر منها ألسنتنا". ويفهم من هذه العبارة أنه لا ينبغي تحريك الشفتين أيضاً بحقيقة إحداها وتخطئة الأخرى وأن لا يذكر أحد منهم إلا بالخير. وكذلك ورد في الحديث النبوي، حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام : إذا ذكر أصحابي فأمسكوا". يعني إذا ذكر أصحابي ومنازعاتهم فامتنعوا عن ذلك ولا تختاروا أحدهم على الآخر .

وذهب جمهور أهل السنة، مستندين إلى ما ظهر لهم من الأدلة، إلى أن الحق في هذه المنازعات إلى جانب علي كرم الله وجهه، ومخالفوه أخذوا طريق الخطأ. ولكن لما كان هذا الخطأ اجتهدياً

كان بعيدا عن الملامة والطعن ومنزها عن التحقير ومبرأ من التشنيع. ونقل عن عليّ أنه قال :  
إخواننا بغوا علينا - أي لا هم كفار ولا فاسق ، فإن لهم تأويلا يمنع عنهم الكفر والفسق .

فالخلاصة أن أهل السنة والرافضة كليهما يخطئون محاربي علي رضي الله عنه ، وكليهما يقولون بحقية جانبه - ولكن لا يجوز عند أهل السنة الزيادة على إطلاق لفظ الخطأ الناشئ عن التأويل في حق محاربيه - فإنهم يحفظون ألسنتهم من الطعن والتشنيع في حق هؤلاء الأصحاب ، ويراعون حق صحبتهم خير البشر - عليه وعليهم الصلاة والسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا من بعدي - وكرر لفظ الجلالة للتأكيد . وقال أيضا : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . ووردت أحاديث أخرى كثيرة في باب تعظيم الأصحاب وتوقيرهم أجمعين . فينبغي إغزازهم وتكريمهم جميعا ، وحمل زلاتهم على محامل حسنة .

هذا هو مذهب أهل السنة في هذه المسألة . والروافض يغالون في هذا الباب ، حتى إنهم يكفرون محاربي علي ، ويلوثون ألسنتهم بأنواع الطعن وأصناف الشتم . فإن كان المقصود إظهار حقية جانب عليّ وبيان خطأ محاربيه فما اختاره أهل السنة كاف فيه ، وهو على حد الاعتدال . والطعن في أكابر الدين ، كما اختاره الرافضة ، بعيد عن الديانة والتدين ، وزعموا أن شتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من دينهم وإيمانهم . ما أقبحه من دين ، حيث أصبح سب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام جزءا من إيمانهم وعقيدتهم!

وامتازت كل واحدة من طوائف المبتدعة بدعة اختاروها وابتعدوا بها عن أهل السنة والجماعة . ولكن فرقتي الخوارج والروافض من بين جميع هؤلاء الطوائف بعيدة عن الحق والصواب بعدا واضحا ، فإذا كان سب أكابر الدين ولعنهم جزءا أعظم من إيمانهم فأنى يكون لهم نصيب من الحق! وافتרכת الروافض على اثنتي عشرة فرقة ، كلهم يكفرون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتقدون سب الخلفاء الراشدين عبادة . وهذه الجماعة يتحاشون عن إطلاق لفظ الرفض على أنفسهم ، ويزعمون أن غيرهم هم الروافض . وذلك لما ورد في الأحاديث من وعيد شديد في حق الرافضة . فياليتهم اجتنبوا عن معنى الرفض أيضا كما تبرأوا من كلمة الرفض ولم يتبرأوا عن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وهنادكة بلاد الهند يسمون أنفسهم هنودا ، ويتحاشون عن اسم الكفر ، فلا يعتبرون أنفسهم كفارا ، ويزعمون أن الكفار هم سكان دار الحرب . وأخطأوا في هذا الفهم وغلطوا ، بل كلا الصنفين كفار ، تتحقق فيهم حقيقة الكفر .

وأما هؤلاء (أي الشيعة) فزعموا أن أهل بيت النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام أيضا مثلهم، وظنوا ظنا فاسدا أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أيضا أعداء أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وهذه الطائفة يظنون بحكم مبدأ القضية الذي يؤمنون به أن أكابر أهل البيت كانوا منافقين ومخادعين، كما زعموا أن عليا كرم الله وجهه صاحب الخلفاء الراشدين ثلاثين سنة صعبة نفاق تقية منه، وعظمهم وقرهم من غير حق واستحقاق! ما أعجب هذه المعاملة!

وإن كان حبههم أهل بيت رسول الله بسبب حبههم لرسول الله - عليه وعليهم الصلوات والتسليمات - وبواسطته فعليهم أن يكونوا أيضا أعداء لأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يسبوههم ويلعنوهم أكثر من سب أعداء أهل البيت ولعنهم، ولكن لم يسمع من أحد من هذه الطائفة أنه سب أبا جهل ولعنه، مع أنه أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأذاه صلى الله عليه وسلم بأنواع من الإيذاء والجفاء. ولم يحرك أحد منهم لسانه بذكر مساويه. وأما أبو بكر الصديق الذي هو أحب الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزعمونه بزعمهم الفاسد عدوا لأهل البيت ويطيّلون ألسنتهم بسبه والطعن فيه، وينسبون إليه أمورا غير لائقة به. فأَي تدين هذا؟ وأية ديانة هذه؟ لا قدر الله سبحانه كون أبي بكر وعمر وسائر الصحابة الكرام أعداء أهل بيت رسول الله - عليه وعليهم الصلاة والسلام - ومبغضين لآل محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعادين لهم! وليت هؤلاء الذين ابتعدوا عن جادة الإنصاف سبوا أعداء أهل البيت ولم يعينوا أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في هذا السياق، ولم يسيئوا الظن بأكابر الدين. لو قاموا بهذا على الأقل لارتفعت حينئذ مخالفتهم في هذا الباب لأهل السنة، فإن أهل السنة أيضا يعادون أعداء أهل البيت، ولا يرون بأسا في الطعن فيهم والتشنيع عليهم.

ومن محاسن أهل السنة أنهم لا يقولون لشخص معين ابتلي بأنواع الكفر إنه من أهل جهنم ولا يجيزون إطلاق اللعن عليه، وذلك لاحتمال إسلامه وتوبته في آخر أمره. وإنما يجيزون إطلاق اللعن على الكافرين مطلقا، دون تعيين شخص منهم، ما لم يعلم سوء خاتمته بدليل قطعي. أما الروافض فيلعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بلا تحاش، ويسبون أكابر الصحابة، ويطعنون فيهم من غير اكتراث، هدامهم الله إلى سواء الصراط.

وفي هذا المبحث اختلاف عظيم بين أهل السنة وبين مخالفينهم في أمرين:

(١) الأمر الأول هو أن أهل السنة يقولون بحقية خلافة الخلفاء الأربعة، ويرون أن كل واحد من هؤلاء الأربعة خليفة حقا؛ لأنه قد ورد في الحديث الصحيح - من باب الإخبار عن المغيبات - أن الرسول عليه السلام قال: "الخلافة بعدي ثلاثون سنة". و انتهت هذه المدة

بمخالفة سيدنا علي . فبمقتضى هذا الحديث يكون كل واحد من الأربعة خليفة حقا ، ويكون ترتيب الخلافة على الحق . ولكن المخالفين ينكرون حقيقة خلافة الخلفاء الثلاثة . وينسبون خلافتهم إلى الغصب والتغلب . ولا يعتقدون أحدا غير علي إماما على الحق . ويحملون البيعة الواقعة من عليّ للخلفاء الثلاثة على التقية . كما يظنون أن الصفة الواقعة بين الأصحاب الكرام كانت صفة نفاق . ويتصورون الصداقة والموالة - التي كانت بينهم مجرد خداع ومجاملة . ذلك لأن شيعة سيدنا علي قد صاحوا - ورافقوا في زعم هؤلاء الطائفة أعداءه وأعداء موافقيه صفة خداع ونفاق على سبيل التقية ، وكذلك كان أحبابه أحبابا لهم على سبيل النفاق وتظاهروا بالموالة على خلاف ما كان في قلوبهم . فيكون جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على زعمهم الفاسد منافقين ومخادعين ومتظاهرين بخلاف ما كان في بواطنهم . فيكون شرار هذه الأمة عند هؤلاء الفرقة هم الأصحاب الكرام ، ويكون شر الصحبات وأخبثها صفة خير البشر - عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، حيث نشأت منها أمثال هذه الأخلاق الذميمة ، ويكون شر القرون قرن الأصحاب لكونه مملوءا بالنفاق والعداوة والبغضاء والحق . والحال أن الله سبحانه وتعالى قال في كلامه المجيد في حقهم "رحماء بينهم" أعاذنا الله سبحانه عن معتقداتهم السوء . فإذا جعلوا سابقي هذه الأمة متصفين بهذه الأخلاق الذميمة فكيف يرون الخير في اللاحقين؟

وكان هذه الطائفة لم تطلع على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في فضل صفة خير البشر - عليه وعليهم الصلاة والسلام - وفي فضيلة أصحابه الكرام ، عليه وعليهم الصلاة والسلام - وما ورد في كون هذه الأمة خير أمة . ويجوز أيضا أنهم اطلعوا على هذه النصوص ولكنهم لم يؤمنوا بها ولم يصدقوها ، وإنما وصل القرآن والأحاديث إلينا بتبليغ الصحابة الكرام ، فإذا كان الصحابة الكرام مطعوناً فيهم يكون الدين الواصل إلينا بواسطتهم ومن طرقهم أيضا مطعوناً فيه بالضرورة - نعوذ بالله من ذلك .

ولعل مقصود هذه الطائفة إبطال الدين وإنكار شريعة النبي - عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات . ففي ظاهر الصورة يظهرون محبة أهل بيت رسول الله ، وفي الحقيقة يبطلون شريعته عليه الصلاة والسلام ، وليتهم تركوا أمير المؤمنين عليا وموافقيه وشأنهم سالمين وبراء من عار التقية التي هي من سمة أهل المكر والنفاق .

وأي خير يكون في جماعة من موافقي علي أو مخالفيه الذين سحب بعضهم بعضا ثلاثين سنة بالنفاق ، وتعاشروا بالمكر والخداع؟ وكيف يستحقون أن يوثق فيهم ويعتمد عليهم؟ فهم يطعنون



في أبي هريرة رضي الله عنه ولا يعلمون أنهم بطعنهم فيه يطعنون في نصف الأحكام الشرعية. وذلك لأن العلماء المحققين قالوا إنه ورد في الأحكام ثلاثة آلاف حديث، يعني ثبت ثلاثة آلاف حكم من الأحكام الشرعية بالسنة، وثبت ألف وخمسمائة منها برواية أبي هريرة. فيكون الطعن فيه طعنا في نصف الأحكام الشرعية، وقال الإمام البخاري إن رواة أبي هريرة أزيد من ثمانمائة من الأصحاب الكرام والتابعين العظام، بما فيهم ابن عباس رضي الله عنهما، وروى عنه ابن عمر رضي الله عنهما أيضا، وكذلك جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك رضي الله عنهم، كلهم من رواة.

والحديث الذي ينقلون عن علي كرم الله وجهه في الطعن في أبي هريرة رضي الله عنه حديث مفترى عليه، كما حققه العلماء. وحديث دعائه رضي الله لأبي هريرة رضي الله عنه بالفهم معروف بين العلماء. قال أبو هريرة رضي الله عنه حضرت مجلسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يسط منكم رداءه حتى أفيض فيه مقالتي فيضمها إليه، ثم لا ينساها. فبسطت بردة كانت علي فأفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته. فضممتها إلى صدري، فما نسيت بعد ذلك شيئا، فاعتقاد شخص عظيم من أكابر الدين من أمثاله عدوا لعلّي بمجرد الزعم، وتجويز السب والطعن واللعن في حقه بعيد عن الإنصاف. وهذه كلها من ثمرات الإفراط في الحب، حتى كادوا يخرجون رقابهم من ربقة الإيمان.

فلئن أجزت التقية فرضا في حق سيدنا علي كرم الله وجهه، فماذا يقولون في أقواله التي نقلت عنه بالتواتر في أفضلية الشيخين؟ وكذلك في كلماته القدسية التي صدرت عنه في حين خلافته وكروسي مملكته في حقبة خلافة الخلفاء الثلاثة؟ فإن التقية إنما تكون بستر حقبة خلافته وعدم إظهار بطلان خلافة الخلفاء الثلاثة؟ وأما إظهار حقبة خلافة الخلفاء الثلاثة وبيان أفضلية الشيخين فأمر وراء تلك التقية، ولا محمل له غير الصدق والصواب، ولا يتصور رفضها وإنكارها بالتقية.

وبالإضافة إلى هذا كله فقد وردت الأحاديث الصحيحة المنقولة في الكتب المعتبرة برواية الثقات عن الثقات في فضائل الخلفاء الثلاثة وغيرهم من الصحابة، وقد بلغت حدة الشهرة، بل بلغت حد التواتر المعنوي، وبشرت جماعة منهم بالجنة. فليت شعري ماذا يقولون في هذا الأحاديث؟ فإن التقية لا تجوز في حق النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام. فإن التبليغ واجب على الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات. وأيضا قد نزلت في هذا الباب آيات قرآنية، ولا يمكن أن يتصور فيها التقية - رزقهم الله سبحانه الإنصاف.

ومن المعلوم عند أرباب العقول أن التقية من صفات الجبن والوهن ، فنسبتها إلى أسد الله الغالب غير مناسبة . وإن جوزت التقية بحكم البشرية لمدة ساعة أو ساعتين أو يوم أو يومين فقد يكون لها مساع ومجال . وأما إثباتها لأسد الله الغالب لمدة ثلاثين سنة ، والقول بإصراره على الأخذ بالتقية طوال تلك المدة كلها فلا شك في كراهته وقبحه . وقد قال العلماء : الإصرار على الصغيرة كبيرة . فما يكون حكم الإصرار على صفة أرباب الشقاق وأصحاب النفاق ؟ فياليتهم يفهمون قباحة هذا الأمر وشناعته .

وهم إنما هربوا من القول بتقديم الشيخين لكونه مستلزما لإهانة علي وتنقيصه في زعمهم الفاسد ، واختاروا إثبات التقية له ، ولم يفهموا شناعة هذه الصفة . فلو فهموا شناعتها لما جوزوها له أصلا ، ولاختاروا أهون الأمرين . بل أقول : لا إهانة لعلي في تقديم الشيخين عليه ، فإن حقية خلافته باقية على حالها . وأما إثبات التقية فيلزم منه التنقيص من شأنه والإهانة في حقه كرم الله وجهه ، لكونها من خصائص أرباب النفاق ومن لوازم أصحاب المكر والخداع .

(٢) الثاني هو أن أهل السنة والجماعة ، شكر الله سعيهم ، يحملون مشاجرات أصحاب خير البشر . عليه وعليهم الصلوات والتسليمات ، ومنازعاتهم على محامل حسنة ، ويعتقدونها بعيدة عن الهوى والتعصب . فإن نفوسهم صارت مزكاة في صحبة خير البشر . عليه وعليهم الصلوات والتسليمات ، وأصبحت صدورهم المباركة طاهرة نظيفة من العداوة والغل والحقد . وغاية ما في الباب أنه لما كان لكل واحد منهم رأي واجتهاد ، وكان العمل لكل مجتهد على وفق اجتهاده واجبا ، فلا بد من الاختلاف والمشاجرة في بعض الأمور ، بسبب الخلاف في الآراء بالضرورة . وكان اتباع كل منهم لرأيه واجتهاده صوابا . فكانت مخالفتهم فيما بينهم مثل موافقتهم لأجل الحق لا للهوى والتشهي واتباع النفس الأمارة .

وأما الروافض فيكفرون مخالفني علي ومحاربيه ويجوزون في حقهم أنواع الطعن والتشنيع . ولكن إذا جاز اختلاف رأي الأصحاب النبي الكرام ، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات ، في بعض الأمور الاجتهادية ، وحكمهم بخلاف رأيه عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، ولم يكن اختلافهم هذا مذموما ولم يكونوا ملومين عليه ، ولم ينزل الوحي بمنعهم عنه ، مع وجود نزول الوحي في ذلك الوقت ، فكيف تكون مخالفتهم لعلي رضي الله عنه في الأمور الاجتهادية كفرا ؟ ولم يكون المخالفون مطعوناً فيهم وملومين ؟ كيف والمخالفون جم غفير من أهل الإسلام ومن أجلة الأصحاب الكرام ؟ ومنهم من بشر بالجنة ! وليس تكفيرهم وتشنيعهم أمرا يسيرا ! كبرت كلمة

تخرج من أفواههم! فإنهم كادوا يكونون هم الذين بلغوا قريبا من نصف الدين والشرعية. فإذا كانوا هم مطعونين في دينهم فلسوف يزول الاعتماد عن شطر الدين.

وكيف يكون هؤلاء الأكابر مطعونين في دينهم ولم يرد أحد رواية أحد منهم أصلا، ولم يطعن في روايتهم أحد، لا سيدنا علي رضي الله عنه ولا غيره، وأيضا فإن صحيح البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، ويعترف به الشيعة أيضا. وسمع هذا الفقير أحمد التبتي، الذي كان من أكابر الشيعة، يقول: إن كتاب البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله. وفيه روايات من موافقي سيدنا علي، كما وردت فيه روايات من مخالفه. ولم تعتبر هذه الروايات راجحة أو مرجوحة بناء على موافقة روايتها لسيدنا علي أو مخالفته. فرواة البخاري يروون عن سيدنا علي كما يروون عن معاوية. فلو كان في معاوية وفي روايته شائبة الطعن، ما أدرج البخاري روايته في كتابه أصلا. وكذلك لم يفرّق في رواية الحديث أحد من نقاد الأحاديث من السلف على هذا الأساس، ولم يجعل مخالفة علي منشأ للطعن.

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يلزم أن يكون علي رضي الله عنه - محقا في جميع الأمور الخلافية، ولا يقطع بكونه محقا في كلها أو أن يكون مخالفوه على الخطأ قطعا، وإن كان الحق في أمر المحاربة في جانبه. فإن علماء الصدر الأول من التابعين والأئمة المجتهدين اختاروا مذهب غيره في كثير من الأحكام الخلافية. ولم يأخذوا بمذهبه. فلو كان الحق متعينا في جانبه لما كانوا يحكمون بخلافه. وكان القاضي شريح من التابعين ومن أصحاب الاجتهاد، ولكنه لم يحكم بمذهب علي ولم يقبل شهادة ابنه الحسن، عليه الرضوان، في حق أبيه، وذلك بسبب كونه ابنا له. وعمل المجتهدون بقول القاضي شريح وأخذوا به، ولم يجوزوا شهادة الابن للأب. وكذلك في كثير من المسائل الأخرى تم اختيار الأقوال التي تخالف رأي علي - كرم الله وجهه - من قبل المجتهدين، كما لا يخفى على المتتبع المنصف، ويستدعى تفصيله كلاما طويلا. فالخلاصة أنه لا مجال للوم في مخالفة علي - كرم الله وجهه - ولا ينبغي الطعن فيمن خالفه في رأيه وملامته بسبب هذا الاختلاف.

وكانت أم المؤمنين عائشة الصديقة - رضي الله تعالى عنها - حبيبة حبيب رب العالمين ومقبولة عنده ومقربة إليه صلى الله عليه وسلم، وبقيت كذلك إلى أن وافاه الأجل المحتوم، ولا زال - صلى الله عليه وسلم - مقيما في بيتها خلال مرض موته، وقبضت روحه الشريفة في حجرها وبين نحرها، ودفن في حجرتها المطهرة. وبالإضافة إلى هذا الشرف كله كانت رضي الله عنها عالمة الأمة بل مجتهدة، وأحال النبي - صلى الله عليه وسلم - بيان شطر الدين عليها. وكان الأصحاب

الكرام يرجعون إليها في حل مشكلات الأحكام، وكانوا يجدون حل المغلقات عندها . فالطعن في مثل هذه الصديقة المجتهدة بمجرد أنها اختلفت مع سيدنا عليّ في بعض آرائها ومواقفها ونسبة الأشياء الغير اللانقة إليها غير مناسبة أبداً ، وبعيدة عن الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فإن كان عليّ كرم الله وجهه ختنه وابن عمه فالصديقة زوجته المطهرة وحبيبته المقبولة ، عليه وعلى جميع أهل بيته الصلاة والسلام .

وكان دأب الفقير قبل هذا بسنين أنه إذا طبخ عنده طعام أن يجعل حصة مخصوصة منه لإيصال الأجر والثواب إلى أهل الرءاء أي أهل بيت نبينا - صلى الله عليه وسلم - عليّ وفاطمة والإمامين ، أعني السبطين الجليلين رضوان الله عليهم أجمعين ، فرأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - مرة في المنام . فسلمت عليه ، فإذا هو - صلى الله عليه وسلم - لا يتوجه نحو الفقير ، بل يتوجه إلى جانب آخر؟ ثم قال في تلك الأثناء للفقير : أنا أكل الطعام في بيت عائشة ، فكل من أراد أن يهدي إليّ الطعام فليرسله إليّ في بيت عائشة . فتيقن هذا الفقير في نفس الوقت أن سبب عدم توجهه الشريف هو عدم إيصال الفقير الأجر إلى الصديقة أيضاً ، فمنذ ذلك الوقت بدأت أجعل للصديقة بل لسائر الأزواج المطهرات اللاتي كلهن من أهل البيت أجراً وحصة في الطعام . وبدأت أتوسل بجميع أهل البيت . فالجفاء والإيذاء اللذان يصيبان النبي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - من جهة الصديقة أزيد وأكبر من الجفاء والإيذاء اللذين يصيبانه - صلى الله عليه وسلم - من جهة سيدنا عليّ . وهذا المعنى غير خفي على العقلاء المنصفين .

نعم إن هذا الكلام على تقدير كون محبة عليّ وتعظيمه بسبب وبواسطة محبة الرسول وتعظيمه ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، وبواسطة قرابته له - صلى الله عليه وسلم - . وأما من اختار حب عليّ استقلالا ، ولم يجعل لحب النبي - صلى الله عليه وسلم - فيه مدخلا فهو خارج عن هذا المبحث ، وغير مستحق أو قابل للمخاطبة . فإن غرضه إبطال الدين وهدم الشريعة ، فإن مثل هذا الشخص يريد أن يتخذ سبيلا إلى النجاة بدون واسطة النبي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، ويرغب عن محمد إلى عليّ . وهذا محض الكفر وعين الزندقة . وعليّ كرم الله وجهه منه بري ، يتأذى من صنيعه ، فإن حب أصحابه وأختانه - صلى الله عليه وسلم - لا يمكن إلا بواسطة حبه عليه الصلاة والسلام . وتعظيمهم وتكريمهم ليس بشيء ، دون كونه بواسطة تعظيمه وتكريمه - صلى الله عليه وسلم .

قال عليه الصلاة والسلام في أصحابه : من أحبهم فبحبي أحبهم . وكذلك من كان مبغضا إليهم فإنما يكون ذلك بسبب بغضه - صلى الله عليه وسلم ، والعياذ بالله ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم . يعني أن المحبة التي تتعلق بأصحابي هي عين المحبة التي تتعلق بي ، وكذلك ببغضهم هو عين البغض الذي يتعلق بي .

وطلحة والزبير رضي الله عنهما من كبار الأصحاب ومن العشرة المبشرة بالجنة . فاطعن فيهما والتشنيع عليهما غير مناسب . ولعنهما وطردهما عائدان إلى اللاعن الطارد . وهما اللذان جعلهما الفاروق رضي الله عنه من الستة الذين ترك الخلافة شورى بينهم ، لأنه لم يجد دليلاً واضحاً لترجيح بعضهم على بعض فتخلّى طلحة والزبير كلاهما عن نصيبهما في الخلافة بأنفسهما وباختيارهما ، وقال كل منهما : تركت حظي .

وطلحة هو الذي قتل أباه ، لأنه صدر عنه سوء أدب في حقه - صلى الله عليه وسلم - وجاءه برأسه ، وورد الثناء على فعله هذا في القرآن الكريم .

والزبير هو الذي أخبر المخبر الصادق - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - أن قاتله في جهنم ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : قاتل الزبير في جهنم . ولعن الزبير ليس دون قتله ، فلاعنه وقاتله متساويان .

فالحذر ثم الحذر ، والحذر ثم الحذر ، والحذر من الطعن في أكابر الدين ، وذم كبار الإسلام الذين بذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الإسلام ونصرة سيد الأنام ، وأنفقوا أموالهم لتأييد الدين بالليل والنهار ، وفي السر والجهار ، وتركوا حب الرسول عشائريهم ، وقبائلهم ، وأولادهم ، وأزواجهم ، وأوطانهم ، ومساكنهم ، وعيونهم ، وزروعهم ، وأنسجارتهم ، وأنهارهم ، وآثروا نفس الرسول - عليه وعليهم الصلاة والسلام - على أنفسهم ، واختاروا محبته على محبتهم وعلى محبة أموالهم وذرياتهم . وهم الذين نالوا شرف الصحبة ، وفازوا في صحبته ببركات النبوة . وشاهدوا الوحي وشرفوا بحضور الملك ، ورأوا الخوارق والمعجزات ، حتى صار غيبهم شهادة ، وعلمهم عينا ، واعطوا من اليقين ما لا يعطي أحد من بعدهم . حتى لا يبلغ إنفاق غيرهم مثل أحد ذهاباً مبلغ إنفاقهم مد شعيرهم ، ولا نصفه ، وهم الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن المجيد ورضي عنهم وهم رضوا عنه ، "ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار" . سمى الله المغيظ بهم كافراً فليحذر المرء عن غيظهم كما يحذر عن الكفر . والله الموفق .

والجماعة الذين تحققت لهم مثل هذه النسبة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاروا موضوع قبول واهتمام عنده - صلى الله عليه وسلم - إذا خالف بعضهم بعضاً في بعض الأمور وتشاجروا

وعملوا بما أدى إليه رأيهم واجتهادهم، لا يكون للطعن فيهم مجال ولا للاعتراض على صنيعهم سبيل، بل الحق والصواب في ذلك الموطن هو عين الاختلاف وعدم تقليد أي منهم رأي غيره .  
ألا ترى أن تقليد الإمام أبي يوسف للإمام أبي حنيفة - رحمهما الله - بعد وصوله إلى درجة الاجتهاد خطأ، والصواب إنما هو تقليد رأي نفسه، حتى إن الإمام الشافعي رضي الله عنه لا يقدم قول صحابي، أي صحابي كان، سواء كان صديقا أو عليا، على رأيه. بل يرى الصواب في العمل برأيه، وإن كان مخالفا لقول صحابي، فإذا كان للمجتهد غير الصحابي من الأمة مجال في مخالفة آراء الصحابة فكيف يكون الصحابة مطعوناً فيهم إذا خالف بعضهم بعضاً .

مع أننا نقول إن الصحابة الكرام قد خالفوا في بعض الأمور الاجتهادية رأي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يرد الذم على هذا الخلاف مع نزول الوحي، ولم يرد المنع عن اختلافهم ذلك، كما مر . فلو كان اختلافهم ذلك غير مرضى وغير مقبول عند الحق جل شأنه لكان قد ورد المنع عنه ونزل الوعيد على المخالفين . ألا ترى كيف جاء المنع من رفع الصوت حين رفع جماعة أصواتهم فوق صوت النبي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - وترتب عليه الوعيد، قال الله تبارك وتعالى "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي" الآية . وقد وقع في أسارى بدر اختلاف عظيم حين أشار عمر الفاروق وسعد بن معاذ رضي الله عنهم بقتل الأسارى، ورأي الآخرون بالتخليص والفدية . وكان الرأي المقبول عنده صلى الله عليه وسلم هو الحكم بالتخليص والفدية . ولا شك أن مواضع الاختلاف كثيرة .

ومن هذا القبيل اختلافهم في الإتيان بالقرطاس، حين طلب النبي - صلى الله عليه وسلم - في مرض موته قرطاسا، ليكتب لهم شيئا . فقال جمع من الصحابة: ينبغي أن يؤتي بالقرطاس، ومنعه جمع آخرون . وكان سيدنا الفاروق من الذين لم يرضوا بالإتيان بالقرطاس، وقال حسبنا كتاب الله . فأكب الطاعنون من هذه الجهة على جناب الفاروق رضي الله عنه وأطالوا عليه السنة الطعن والتشنيع .

وليس هذا في الحقيقة محلا للطعن، فإن جناب الفاروق قد علم أن زمان الوحي قد انقطع، والأحكام السماوية قد اكتملت، وأنه لم يبق لإثبات الأحكام مجال إلا للرأي والاجتهاد، وأن ما يكتبه النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يكون إلا من الأمور الاجتهادية التي يشارك فيها الآخرون، انطلاقا من قوله تعالى: "فاعتبروا يا أولي الأبصار" . فرأي سيدنا الفاروق الصواب في أن لا يثقل على النبي صلى الله عليه وسلم عند غلبة الوجد والألم، وأن يكتفي بالرأي والاجتهاد .

وأما قوله رضي الله عنه حسبنا كتاب الله؛ فمعناه القرآن المجيد يكفيننا بصفته مأخذ القياس ومصدر الاجتهاد، وأنه كافٍ للمستنبطين الذين سوف يستنبطون منه الأحكام. وأما تخصيص الكتاب بالذكر هنا فيمكن أن سيدنا الفاروق علم بالقرائن أن الأحكام التي كان صلى الله عليه وسلم بصدد كتابتها مأخذها الكتاب، لا السنة، فلذلك لم يذكر السنة. فكان منع الفاروق من جهة الشفقة والرحمة، لئلا يثقل على النبي صلى الله عليه وسلم بشيء، في حالة شدة الوجع والألم. وكان أمره صلى الله عليه وسلم هذا بالإتيان بالقرطاس من باب الاستحباب، ولم يكن من باب الوجوب. فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يريح أمته من مشقة استنباط هذه الأحكام، فلو كان أمر "إيتوني" للوجوب لبالغ النبي صلى الله عليه وسلم فيه، ولم يعرض عنه لمجرد ظهور الاختلاف.

فإن قيل: قد قال سيدنا الفاروق في ذلك الوقت: "أهجر؟ استفهموه" فما المراد به؟ نجيب ونقول: لعل سيدنا الفاروق ظن في ذلك الوقت أن هذا الكلام إنما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من غير قصد واختيار بسبب شدة الوجع والألم، كما يتوهم من قوله: "أكتب" فإنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يكتب شيئا أصلا. وأيضا يتضح هذا من قوله: لن تضلوا بعدي. فإذا كان الدين كاملا، وصارت النعمة تامة. وحصل رضا المولى عز وجل به، كيف تتصور الضلالة بعد ذلك؟ وماذا يمكن أن يكتب في ساعة واحدة، لتدفع به الضلالة؟ ألم يكن الذي كتب في مدة ثلاث وعشرين سنة كافيا لدفع الضلالة؟ ألم تدفع به الضلالة؟ وهل يكتب في ساعة واحدة شيء مع وجود شدة المرض تدفع به هذه الضلالة؟ فمن هنا ظن الفاروق أن هذا الكلام جرى على لسانه الشريف من غير قصد منه. بناء على البشرية. فكان الفاروق قال للحضور: حققوا هذا المعنى بالاستفسار منه ثانيا. فارتفعت أصوات الاختلاف. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قوموا ولا تختلفوا. فإنه لا يستحسن النزاع عند النبي. ولم يقل مرة أخرى من هذه المقولة شيئا. ولم يكررها ثانية ولم يذكر دواة ولا قرطاسا.

وينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من الأصحاب الكرام في بعض الأمور الاجتهادية بالنسبة إلى النبي - عليه وعليهم الصلاة والسلام - لو كان فيها، والعياذ بالله، شائبة الهوى والتعصب لأدى ذلك إلى اللحق بزمرة أهل الارتداد، والخروج من ربة الإسلام. فإن سوء الأدب وسوء المعاشرة معه صلى الله عليه وسلم كفر - أعاذنا الله سبحانه منه - بل الحقيقة أن هذا الاختلاف كان مبنيا على أمر "فاعتبروا". فإن من بلغ درجة الاجتهادي فتقليده لاجتهاد غيره واتباعه لرأي الآخرين

في الأمور الاجتهادية خطأ ومنهى عنه . نعم لا مجال في الأحكام المنزلة التي لا دخل فيها للرأي والاجتهاد إلا للتقليد ، والإيمان والانقياد واجب فيها .

غاية ما في الباب أن أصحاب القرن الأول كانوا بريئين من التكاليف ، ومستغنين عن تحسين العبارات . وكان جل اهتمامهم بإصلاح الباطن ، وكانت الظواهر والمظاهر ساقطة الاعتبار في نظرهم ، وكانوا لا يراعونها أصلاً ، وكانت مراعاة الآداب في ذلك القرن باعتبار الحقيقة والمعنى ، لا باعتبار الظاهر والصورة فقط ، وكان دأبهم امتثال أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وكان ديدنهم اجتناب ما لا يرضى عنه - صلى الله عليه وسلم ، وكانوا جعلوا آباءهم وأمهاتهم وأولادهم وأزواجهم فداء له عليه الصلاة والسلام . ومن كمال اعتقادهم وإخلاصهم أنهم لم يتركوا حتى بزاق النبي صلى الله عليه وسلم ليقع على الأرض ، بل كانوا يتلقونه بأيديهم ويمسحون به أبدانهم ووجوههم ، مثل ماء الحياة ، وقصدهم شرب دمه صلى الله عليه وسلم بعد الفصد من كمال الإخلاص مشهور ومعروف . فإن صدرت عن هؤلاء الأكابر عبارات موهمة لقلّة الأدب بالنسبة إليه - صلى الله عليه وسلم - في نظر أهل هذه القرون المشحونة بالكذب والخداع فينبغي أن تحمل على محمل حسن ، وأن يصار إلى حاصل العبارة ومقصودها ، وأن لا يلتفت إلى ظاهر العبارة من أي قسم كانت . وهذا هو الطريق السليم . والله سبحانه هو الموفق .

فإن قيل إذا كان في الأمور الاجتهادية مجال للخطأ فكيف يكون الوثوق بالأحكام الشرعية المنقولة عنه عليه الصلاة والسلام؟ نجيب بأن الأحكام الاجتهادية صارت في المآل ونهاية المطاف أحكاماً منزلة سماوية؛ فإن تقرير الأنبياء على الخطأ غير جائز . فينزل في الأحكام الاجتهادية - بعد ثبوت اجتهاد المستنبطين واختلاف آرائهم - حكم من عند الحق جل وعلا ، يفرق الصواب من الخطأ ويميز الحق من الباطل ، فصارت الأحكام الاجتهادية في زمانه - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول الوحي وتميز الصواب من الخطأ أيضاً قطعية الثبوت ، ولم يبق فيها احتمال الخطأ . فجميع الأحكام التي ثبتت في زمنه - صلى الله عليه وسلم - قطعية محفوظة عن احتمال الخطأ لأنها ثبتت بوحى قطعي ابتداءً أو انتهاءً . وكان المقصود من الاجتهاد في استنباط هذه الأحكام هو أن تكون للمجتهدين والمستنبطين درجات عالية من الكرامة ، وينال المصيب والمخطئ أجراً وثواباً على تفاوت الدرجات . ففي الأحكام الاجتهادية ارتفاع درجات المجتهدين - وثبتت قطعية تلك الحكماء بعد نزول الوحي بتأييدها . نعم إن الأحكام الاجتهادية بعد انقراض زمان النبوة ظنيات مفيدة للعمل ، لا مثبتة للاعتقاد ، ولا يكون منكرها كافراً ، إلا أن ينعقد إجماع المجتهدين على حكم فيكون حينئذ مثبتاً للاعتقاد أيضاً .



ولنختم هذا المكتوب بالخاتمة الحسنة في فضائل أهل بيت الرسول عليه وعليهم الصلوات والتسليمات والبركات والتحيات.

١- روى ابن عبد البر أنه قال - عليه وعلى آله الصلاة والسلام : من أحب علياً فقد أحبني ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أذى علياً فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله .

٢- وأخرج الترمذي والحاكم وصححه عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم - قيل يا رسول الله سمهم لنا . قال : عليّ منهم ، يقول ذلك ثلاثاً ، وأبو ذر والمقداد وسلمان .

٣- وأخرج الطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : النظر إلى عليّ عبادة . اسناده حسن .

٤- وأخرج الشيخان عن البراء رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسنُ على عاتقه ، وهو عليه وعلى آله الصلاة والسلام يقول : اللهم إني أحبه فأحبه .

٥- وأخرج البخاري عن أبي بكرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ، ويقول إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

٦- وأخرج الترمذي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، والحسن والحسين على وركيه ، فقال هذان ابناي وابنا بنتي . اللهم إني أحبهما وأحب من يحبهما .

٧- وأخرج الترمذي عن أنس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي أهل بيتك أحب إليك؟ قال الحسن والحسين .

٨- وروي المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاطمة بضعة مني فمن أبغضها أبغضني . وفي رواية : يريني ما رابها ويؤذيني ما آذاها .

٩- وأخرج الحاكم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعليّ : فاطمة أحب إليّ منك وأنت أعز عليّ منها .

١٠- وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : إن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت : إن نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كن فريقين ، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية

وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء فريق أم سلمة، فقلن لها: كلمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليهد إليه حيث كان. فكلمته. فقال لها: لا تؤذيني، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة، إلا عائشة فقالت: أتوب إلى الله سبحانه من أذاك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إنهن دعون فاطمة، فأرسلنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمته. فقال: يا بنية ألا تحبين من أحب؟ قالت: بلى. قال: فأحبي هذه.

١١- وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت ما غرت على أحد من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة. وما رأيته، ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح شاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة رضي الله تعالى عنها: فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد.

١٢- وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العباس مني وأنا منه.

١٣- وأخرج الديلمي عن أبي سعيد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اشتد غضب الله على من أذاني في عترتي.

١٤- وأخرج الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خيركم خيركم لأهلي من بعدي.

١٥- أخرج ابن عساكر عن علي كرم الله تعالى وجهه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من صنع إلى أهل بيتي براً كافأته عليه يوم القيامة.

١٦- أخرج ابن عدي والديلمي عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أثبتكم على الصراط أشدكم حبا لأهل بيتي ولأصحابي.

إلهي: بحق بني فاطمة، أبتهل إليك أن تجعل عاقبتني خيرا، وأن تميتني على الإيمان، وأن لا أزال غريقا في حب آل بيت الرسول، و صلى الله تعالى عليه وعليهم وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، والملائكة الكرام المقربين، وعلى سائر عباد الله الصالحين، أجمعين.

## المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للشيخ أحمد بن محمد الدمياطي الشهير بالبناء الشافعي، ص: ٥، طبع مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، مصر.
- ٣- الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى ٩١١هـ، من منشورات رضي بيدار عزيزي، إيران، تاريخ الطبع ١٣٦٣هـ ش، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٤- أحكام القرآن، لابن العربي دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨م بتحقيق: محمد عبد القادر عطا.
- ٥- أحكام القرآن، لالكنيا الهراسي الطبعة الثانية عام ١٩٨٥م دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٦- أحكام القرآن، للجصاص طبعة سهيل أكاديمي بلاهور، باكستان عام ١٩٩١م.
- ٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لمحمد بن محمد العمادي أبي السعود، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ الطبع.
- ٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.
- ٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، طبع دار الفكر عام ١٩٩٦م، تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة، بيروت، لبنان.
- ١٠- البحر المحيط لأبي حيان، طبع دار الفكر بيروت، عام ١٩٨٣، الطبعة الثانية.
- ١١- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، للشيخ عبد الفتاح القاضي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- ١٢- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، طبع دار المعرفة، بيروت، عام ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ١٣- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، طبع دار الفكر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- ١٤- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠هـ، طبع دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ١٥- حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، بدون تاريخ الطبع.
- ١٦- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية جمع د. محمد السيد الجليلند، طبع مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية عام ١٤٠٤هـ عدد المجلدات: ٦.
- ١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل محمود الألوسي المتوفى

- ١٢٧٠هـ، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ الطبع.
- ١٨- زاد المسير لابن الجوزي، طبع المكتب الإسلامي، بيروت، عام ١٩٦٤م.
- ١٩- الغريب، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى ٢٢٤هـ، طبع دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: د. عبد المعيد خان.
- ٢٠- غيث النفع في القراءات السبع، للشيخ علي النوري الصفا قسي على هامش سراج القاري، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، بدون تاريخ الطبع.
- ٢١- الفصول في الأصول لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص المتوفى عام ٣٧٠هـ، طبع وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الثانية عام ١٩٩٤م، تحقيق: د. عجيل جاسم النشمي.
- ٢٢- القاموس المحيط للفيروز آبادي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، شارع سوريا، عام ١٩٨٧م.
- ٢٣- المحرر الوجيز لابن عطية، طبع على نفقة أمير دولة قطر، بتحقيق السيد عبد العال السيد إبراهيم.
- ٢٤- معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، طبع دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عام ١٩٨٧م، تحقيق: خالد العك، ومحمد سوار.
- ٢٥- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٢٦- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لأحمد مصطفى طاش كبرى زادة، طبع دار الكتب الحديثية، مصر، بدون تاريخ، تحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور.
- ٢٧- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني طبع دار الفكر، بيروت، عام ١٩٩٦م.
- ٢٨- منجد المقرئين، لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري الدمشقي الشافعي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، راجعه أحمد محمد شاكر ومحمد حبيب الله الشنقيطي.
- ٢٩- النشر في القراءات العشر، للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن الجزري الدمشقي الشافعي، طبع مكتبة القاهرة، بمصر، بدون تاريخ الطبع، تحقيق: الشيخ محمد سالم محيسن.
- ٣٠- النهاية في غريب الحديث، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المتوفى عام ٦٠٦هـ، طبع المكتبة العلمية، بيروت، لبنان عام ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي.